ذكريات

بعض الأدباء الذين عرفتهم (١)

عرفت جرجى زيدان مؤسس الهلال قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بانجلترا ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كي تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلىّ بخطاب مسهب يشرح لى فيه وجوه النقد التى يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لابأس أن ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد دياناتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقاهم ؛ لأنهم لم يألفوا النقد » . وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرته واتصلت معرفتى به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعيه إلى قبره . وكان جرجى زيدان عصامياً فى ثقافته وثروته ، وهو أول من أرصد حياته فى عصرنا لدراسة التاريخ الإسلامى ، وألف فى ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الإسلامى . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التى استفاضت فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجى زيدان أى اتجاه علمى . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هى أن البنات فى الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسى فى الحادية عشرة أو حوالى ذلك أى قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لى إن « الأسلوب يعجبنى » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنى كنت مخطئاً فى هذا التعليل البيولوجى ؛ إذ ليس هناك أى فرق فى سن النضج الجنسى بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

---

(١) هذه ذكريات الأستاذ ننشرها بالطبع كما كتبها لا نستبيح لأنفسنا أن نراجعه فيها فضلا عن أن نحاول الملاءمة بينها وبين آرائنا الخاصة فيمن ذكر من الأحياء والأموات .

وكان جرجى زيدان انبساطيا بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلمته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول: إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لا يزال حيًّا. وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبينا ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية ، وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الإسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل ، فكان يستوعب أكثر ما يستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت الجامعة المصرية كلِّف إلقاء محاضرات عن التاريخ الإسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحى . وقد تركت هذه الحادثة فى نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها فى حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية ؛ فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتى بفرح حين شاركته فى تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة فى إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو ما يقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسّو . وقد اندمج بعد ذلك فى الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبى الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطيًّا مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره فى النهضة المصرية . فإن الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الإسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوربية . ومات الأول حوالى الستين ، ومات الثانى حوالى الأربعين

وفى تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز

الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى وهل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى . وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ، وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألمانى الذى نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين فى العالم ، وأن شوبنهور لا قيمة له بتاتاً إلا فى « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » فى أيامه من المجلات القوية التى وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافًّا فى إيراده للبحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جدية من المجلات الأوربية .

وفى إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغويًّا عالى الذهن ، وقد وضع معجما بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن ما يعتمد عليه فى هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحة كانت تجعل الحديث معه شاقاً ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل فى السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل فى مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التى أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثمانى لا يطيقون ذكره . وإذا شرع أحدهم فى الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ . ولم يكن وجدانهم وطنيًّا ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت ، وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية . وأظن أنهم كانوا على حق فى هذا .

ومن الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة مى . وقد بقينا صديقين إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولم تكن مى جميلة ولكنها كانت

«حلوة» . وكانت تعرف الآداب الإنجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية فى أوربا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفا ورقة . وقد استطاعت مى أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية أو السورية زينة أنثوية لا استرجالاً كريهاً . وكانت ، فى حياة أبويها ، تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته . وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر «الصالون» ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت مى . ولم يكن ذلك ، فى ظنى ، لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عند ما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقيًّا .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوچى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوچى عند بعض النسوة . وقد ماتت مى منذ أكثر من سنة بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولما عادت زرتها مع صديق الأستاذ أسعد حسنى . وفتحت هى لنا الباب ، فرأيت شخصاً لا أعرفه . رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عينى ، فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت ، ولكنها أدركت كل شىء . واستولى علىّ اكتئاب وخجل وجمود ، وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام . ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا

عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادى هذا عند ما أصرّت أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فإنى بقيت طيلة المساء وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عند ما رأيتها بالباب ، فأحييها تحية اشتياق وتقدير ، وأنها لابد قد عرفت من جمودى أنها تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طيلة الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفّرت عن جمودى فى الأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت ؛ إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر ، ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث . وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتى فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم . » وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره .

وقد يسائل القارىء هنا : لمَ لمْ تتزوج مى مع جمالها وظرفها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس

أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ، لا يزالون شرقيين ، ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها فى صالون أدبى له حرية الصالونات الأوربية فى المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : إن مى عاشت فيما قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة «البيان» . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيى الأسلوب العربى القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » ، للمويلحى أو كما تفعل الآن مجلة «الرسالة» . وكان البرقوقى نقيضى فى أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة فى التعبير عن معنى مابكلمة مماتة . ويقول إننا يجب أن نحيى هذه الكلمة . ولم يكن يجدى احتجاجى عليه بأن الكلمة إنما أميتت لأسباب قوية استدعت موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعى قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعى أكثر إمعاناً منه فى خطة الإحياء للكلمات المماتة . وعرفت محمد السباعى وكان الكاتب الأول فى مجلة «البيان» . أما الكاتب الثانى فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعنى أكبر العناية بالأسلوب العربى القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفى ، ولذلك لم تعش طويلا .

وكان عبد الرحمن البرقوقى من أطيب الناس . وكان غربى الذهن ، قضت المصادفات بأن يكون شرقى التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشى فى الإسكندرية فيأخذ فى المقارنة بين الشوارع التى أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التى أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة مايحمله على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى فى اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقًّا أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التى تحول دون الصراحة ، فإنى أروى الحادث التالى الذى يدل على النفس الزكية التى كان يتسم بها البرقوقى . فقد كنا على قهوة فى الإسكندرية حوالى ١٩١٤ وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم فى رقته ونعومته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها فى اشتهاء ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة

الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول ، وكان غاية فى القذارة والجوع والعفن ، فطلب إحساناً . فتأمله البرقوقى ثم نظر إلىَّ كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . وأكل الرجل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوقى يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابى العظيم بها . فلما دخلنا عليه ، وجدت غرفته كأنها غرفة وزير فى سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدرى إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد ، ولكنى خرجت من هذه المقابلة الأولى وفى اعتقادى أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالى تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين . وكان أزهريًّا معمما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات « الجريدة » . والتحق بالجامعة المصرية ونال دُكتورية الأدب . وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة « المستقبل » الأسبوعية فى الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هى أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول فى « الجريدة » على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون مع أنه ضرير هو معجزة . ولكن ثم معجزة أخرى هى أنه اتخذ مكاناً أماميًّا ثوريًّا مستقبليًّا فى الأدب ، مع أن الإنسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، أن يتخذ مكاناً تقليديًّا حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » فى الأدب والاجتماع والسياسة . وقد يقال إن المعرى قد أثر فيه وبعث فى نفسه كراهة لقواعد « النحو والصرف » فى أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولاعبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التى وجدها طه حسين فى المعرى ؛ لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة لم يجذبوا

طه حسين . وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة . وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فى الثورة ، وخاصة الثورة على المشايخ . فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح ، ثم رأى عند المعرى مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح ، فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بثورة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف .

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية . ولكنهم مخطئون ؛ لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا . وأعنى بالطبع السياسة العليا ، السياسة العالمية والقطرية . ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً فيرصد قلمه للدفاع عنه ظالماً أو مظلوما . ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية . وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشؤون البشرية حين يبتعد عن السياسة . وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون عنصراً من عناصر هذا التطور . ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى .

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة ، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد . وحين أتأمل الصدود الذى نلاقيه أحياناً فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى ، على الرغم من شاعريته الرائعة ، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى ، ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب ، إلا فى فترات نادرة ، وأن إعجاب الشعب بحافظ إبراهيم ، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى ، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية . وحتى فى المستقبل بعد مائة سنة مثلا سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش ، زمناً غير قصير من حياته ، فى البرج العاجى .

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته . وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه . وقد فهمت مقداراً كبيراً

من سيكلوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لى فى إسهاب لماذا ألف درامة « كليوبطرة » . فقد زعم أنه أراد أن يزكى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسىء إليها فى سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عند مناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان فى ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التى اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقى فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر ، فى بيئة الباشوات والبكوات التى كانت تكره عرابى ، ولم يقطع الحبل السرى الذى كان ربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ إبراهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم ويخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الإنسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة . وكان وطنيًّا يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : « إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب » .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقى وحافظ ومطران ؛ فإن دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتنافسة والمتناقضة فى المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة . فإننا نحس أحياناً فى قصائد شوقى ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال : السجاجيد الإيرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حافظ فصرخات المتألم ، وأحياناً مهاترات العاجز . ونحن نقرؤها فنصرخ معه ونهاتر فى ألم وعجز ؛ لأنه منا ونحن منه : شاعر مصرى بلدى . أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

سلامة موسى